تدريس التاريخ الوسيط في الجامعات الجزائرية

(رؤية من أجل تحديث المناهج وتقريب الأهداف)

الدكتور مصطفى مغزاوي

جامعة الشلف

تمهيد:

إذا كان تدارس التاريخ وتدريسه ضرورة علميّة وحضارية، فإنّ تدريس التاريخ الإسلامي بالنسبة لنا كأمة إسلاميّة له من المزية والحساسيّة ما يفرض علينا الاعتناء به دراسة وتدريسا، تحقيقا ونشرا، تصحيحا وتنقيحاً، وهو ما نحن نأمله من خلال هذا الجمع العلميّ المبارك، وسأحاول إن شاء الله تعالى تشخيص واقع تدريس هذه الفترة الحساسة من تاريخنا في الجامعات الجزائرية من خلال جامعة الشلف كنموذج، ومن ثمّ نضع بين أيديكم مقترح لمنهج علميّ نعتقد فيه تفعيل أهداف دراسة وتدريس التاريخ الإسلامي في جامعاتنا.

واقع وخصائص تدريس تاريخ الفترة الوسيطة:

لعل الحال في جامعة الشلف لا يختلف كثيرا عن غيره من جامعات الوطن من حيث تجاوب الطلبة وتفاعلهم وإقبالهم على دراسة التاريخ الوسيط والتاريخ الإسلامي منه على وجه الخصوص كوحدات دراسية أو كتخصصات في طوري الليسانس والماستر، وفي استطلاع سريع لآراء الطلبة تبيّن لنا أنّ مردّ هذا الإقبال يعود أساساً إلى عاملين رئيسيين: أوّلهما: تذوّق الطلبة للمحاور والمواضيع التي يطرحها التاريخ الإسلامي من جهة، ومن جهة أخرى -على حدّ انطباعات الطلبة دائما- وفرة المادة العلمية مطبوعة وإلكترونية عربيّة ومعرّبة، سواء المصدريّة منها أو المتأخرة، المحليّة والأجنبية والاستشرافية، وباستقراء آراء الطلبة يتبيّن لنا ضرورة الاستثمار في تلك القابليّة لتعزيز الانتماء الإسلامي في نفوس الناشئة.

ويرتبط الحديث عن تاريخ العصور الوسطى بالحديث عن أمجاد الأمة الإسلامية، فهو يرتبط بحضارتنا وتاريخنا ومن ثم بمستقبلنا، "فتاريخ الأمة المسلمة هو الواقع التّطبيقي لهذا الدين، وهذه الصّفحات البيض للتّاريخ الإسلامي قد تعرّضتْ مع

تعرُّض بلاد الإسلام للغزْو العسكري لغزْو فكري، قام على أكْتاف المستشـــرقين، يُعاونهم الكثير من أبناء العرب والمسلمين، وقد ترتَّب على هذا الغـــزْو أنَّ الأمَّـــة المسلمة أصبحت تنظُر لنفسها ولغيرها من خلال كتابات صنعتْها أيدٍ أجنبيَّة"[1].

فالتاريخ الإسلامي هو تاريخ حضارة جمعت كل مجالات الحياة في منظومة رائعة راقية، جمعت الأخلاق، والسياسة، والاجتماع، والاقتصاد، والقضـــاء، والترفيـــه، والقوة، والإعداد، والتدبير والإعمار، جمعت كل ذلك جنبًا إلى جنب مع ســـلامة العقيدة، وصحة العبارة، وصدق التوجه، ونبل الغاية.

وللتاريخ الإسلامي ارتباطٌ مباشر بديننا وعقيدتنا وقيمنا الإسلامية، فالتـــاريخ الإسلامي هو الإسلام مطبقا منفذا على أرض الواقع، إذ هو يعرض لنا سيرة الـــنبي صلى الله عليه وآله وسلم نبيا ومعلما ووالدا وزوجا وأميرا وقائدا، وينقل لنا سيرة القرون المفضلة المشهود لها بالخيريّة، وأخبار الرواة الذي انتقلـــت الســـنة منـــهم إلينا، من جهة وقت الطلب واللقاء والرحلة في طلب العلم والاختلاط والتغير وسنة الوفاة، وحال الراوي من جهة الصدق والعدالة، فكان إذا خدمة التاريخ الإسلامي خدمة مباشرة لهذا الدين، والقدح فيه قدحٌ في الدين.

ومن خلال ما سبق يمكننا فهم ما يلاحظ من أنّ التـــاريخ الإســـلامي قاســـم مشترك بين المثقفين المسلمين الجزائريين، فما من مثقف إلا وله حظ ونصيب كثـــر أو قلّ من المعارف التاريخية المتعلقة بالتاريخ الإسلامي، بصرف النظر عـــن مجـــال تخصصه أو اهتمامه، وبالتالي تدريس التاريخ الإسلامي إسهامٌ في تكوين شخصـــية الفرد المسلم أيّا كان اختصاصه ومجال اهتمامه.

ودراسة وتدريس التاريخ الإسلامي يمنحنا الحصانة الفكرية المفقودة بين الناشئة، فالتحقق والعناية بتاريخنا الإسلامي يكشف لنا زيف ما يدعيه المعادون للإسلام من افتراءات وأكاذيب وأقاويل جزافية، وبالتالي يمنحنـــا المقـــدرة علـــى دحـــض افتراءاتهم[2]، وتدعيم الصادق منها، وإذا لم ندرس تاريخنا لن نتمكن من ذلك.

بالإضافة إلى ذلك فإن تدريس التاريخ الإسلامي يفتح لنا كباحثين وطلبة فرصة إخراج كنوز حضارتنا، بلا شك أن حضارتنا الإسلامية زخـــرت بـــالكثير مـــن

الكنوز والإبداعات والتي اقتبس منها الكثير من الغرب دون حفظ حقوق أصحابها المسلمين، لذلك لا بد أن نكشف بأنفسنا عن كنوز حضارتنا وتصحيح ادعاءات الإبداع الزائفة، بالإضافة إلى نفض الغبار عن الكنوز المدفونة في طيات الأدراج لنستوعبها ومن ثم نتجاوزها إلى الإبداع والابتكار كما فعل أجدادنا المسلمون[3].

فالتاريخ الإسلامي مادة مهمة في مجال العقيدة والأحكام والدعوة والجهاد والأخلاق، وهو سجل حافل من مآثر سلفنا الصالح فهو عبارة عن قوالب تختزن فيها وقائع تشتمل على نماذج حية من تطبيق الإسلام على هذه الأرض.

نحو منهجيّة عمليه لتجسيد أهداف تدريس التاريخ الوسيط في الجامعات الجزائرية:

سنحاول من خلال هذه المداخلة اقتراح منهج علميّ عمليّ في تدريس التاريخ الإسلامي في الجامعات الجزائرية، وهو منهج يستند على ثلاث منطلقات رئيسيّة تتمحور حول:

- الإلمام بالأهداف العلميّة والتربويّة والحضارية لتدريس التاريخ الإسلامي.
- الاعتماد على مادة مصدريّة تاريخيّة موثوقة سندا ومتنا.
- عرض تاريخ الفترة الوسيطة الإسلاميّة وفق أسلوب نقدي يتجاوز الإلقاء والتلقي لنفسح التجربة لأسلوب النقد والتحري.

فمن أهم قواعد التصوّر الحضاري التي يجب تفعيلها لدى الطلبة الإيمان بوحدة الأمة الجزائرية المتميّزة بمقوماتها الذاتية عبر العصور، وإدراك وتلمّس مقومات هذه الوحدة.

وهذا المفهوم لوحدة الأمة الجزائرية عبر العصور يجب أن يولد في دارس التاريخ الإسلامي الوعي بهذه الرابطة المشتركة عبر العصور، فيُدرَّس تاريخنا الإسلامي على أنه وحدة واحدة، نظرا للاشتراك في المفاهيم والدوافع والمؤثرات التي تساعد على صنع الحدث التاريخي وتشكيله.

كما أننا نقترح في هذا المجال ربط الشخصية الجزائرية بتاريخها الوسيط، عقيديا ومذهبيا وفكريا وحضاريا، ليتصحّح في أذهان الطلبة أن الشخصية الجزائرية ليست

وليدة الوجود العثماني أو الاستعماري الفرنسي، بل تضرب بجذورها إلى أبعد من ذلك.

ومن مقتضيات المنهج المُقترح لتدريس التاريخ الإسلامي، التمييز بين أحكام الشريعة الإسلامية وبين أخطاء المحسوبين عليها، فقواعد الإسلام تتلقى من مصادرها المعروفة (الكتاب والسنة) لا من أعمال الناس وسيرهم مهما ألبسوا من هالة وتقديس، فمن الخطأ الفادح تدريس التاريخ الإسلامي على أنه هو الإسلام مطبقا والتسليم بذلك.

ومما يتنافى والمنهج الذي نأمل الوصول إليه التأثر بالمنزلة العلمية أو المكانة الاجتماعية للأشخاص الفاعلين في الحدث التاريخي الذي نعالجه، فنصدر أحكاما عاطفية تحاولنا تبرير الخطأ وإظهاره بمظهر الصواب، "لأن تبرئة الأشخاص لا تساوي تشويه المنهج"[4]. ومنهجيا أيضا يجب العودة إلى التعامل مع مصادرنا المحلية ودراساتنا القطرية وعدم الإغراق في الدراسات المشرقية والاستشرافية.

ولتحديث المناهج دائما وجب علينا تجاوز أسلوب الإلقاء والتلقي لنفسح التجربة لأسلوب النقد والتحري، حتى يتدرب الطلبة على فن البحث عن الحقيقة واكتساب استقلالية الفكر والشجاعة في اتخاذ تبني المواقف واتخاذ القرارات وطرح الأفكار.

أما الأهداف الغائبة في تدريس وحدات التاريخ الوسيط فهي أهداف ترتبط بتجديد الثقة في انتمائنا الإسلامي العربي من أجل القضاء على الهوة المصطنعة في أذهان الطلبة بين الشخصية الجزائرية المعاصرة وانتمائها الإسلامي العربي الأصيل، حتى لا يضيع الطلبة في استيراد واصطناع سلوكيات الشرق والغرب.

وفي الوقت نفسه يجب علينا تدريس التاريخ الإسلامي بسماته وخصائصه العامة وهذا ما يجنبنا الأخطاء الناشئة من الدراسة على أساس التوزيع الجغرافي أو القبلي أو الزمني، والتي تفتت الوحدة وتفكك الرابطة.

والتاريخ بصفة عامة والتاريخ الإسلامي بصفة خاصة معرفة نقلية تعتمد على الأخذ من المصادر التي وصلتنا مخطوطة أو مطبوعة، لأن التاريخ خبر عن حدث

وقع وانتهى، وما دامت المصادر بهذه الأهمية فكان من مقتضيات المنهج المقترح الاعتناء بها غاية الاعتناء، بترتيبها الترتيب الصحيح وفق معايير نقدية محددة، كدرجة الثبوت والثقة في المصدر، وكالقرب من الواقعة التاريخية سواء قرب المصاحبة والمعايشة أو القرب الزمني، فيُقدّمُ ما هو أوثق ثبوتا كالنقل المتواتر ثمّ ما هو أقل من ذلك، وتُقدّ رواية من هو ألصق بالخبر على من لم تكن هذه صفته، ومن ضمن ذلك نشير إلى تقديم المصادر الشرعيّة على كل مصدر باعتبارها وحي من الله عز وجل قطعيّة الثبوت أصدق من كل وثيقة تاريخية، ولأنها وصلتنا بأوثق منهج علميّ، فالقرآن وضلنا بالتوتر المُجب للعلم القطعيّ في كل آية وكل كلمة بل وكل حرف، وصحيح السنة وصلنا بمنهج علميّ دقيق هو في نظرنا أرقى ما تستطيعه الطاقة البشرية، فلا يخفى علينا أننا ندرس تاريخ أمة ذات عقيدة تحركها في السلم والحرب، في الشدة والرخاء، في الماضي والحاضر، فدراسة التاريخ الإسلامي بمنهج يستبعد المصادر الشرعية هو منهج -ولا شكّ- منهج يشوبه النقص والتشويه.

بعد التأكيد على مراعاة المصادر الشرعية في تدريس ودراسة التاريخ الإسلامي، وجب تقديم المصادر والدراسات الموثوقة في منهجها ومعتقدها وأصحابها، لأنّ " إقدام الكذابين على تصنيف الكتب بأسمائهم أو نسبتها لغيرهم، أدى إلى انتشار أكاذيبهم بين أهل العلم من جهة، وإلى الحفاظ عليها وإدخالها في المكتبة الإسلامية، ونقلها إلى الأجيال القادمة من جهة أخرى. كما أنهم بذلك الفعل قد أعطوا لمفترياتهم قوة في التأثير على الناس، لأن الشيء المدوّن له على النفس وقع أكثر مما للروايات الشفوية في كثير من الأحيان"[5].

والمنابع التي نستقي منا المادة التاريخية يمكن تصنيفها إلى: مصادر إثبات الحقائق والأخبار والروايات، وقد رسم أهل الاختصاص مناهج غاية في الدقة والاتقان، خاصة مناهج علماء الحديث النبوي، ودراسات أخرى تعنى بتفسير الحوادث والروايات التاريخية والحكم عليها، وهذه متعلقة بالتصورات والعقائد والخلفيات التي يستند إليها أصحابها.

ويحتاج دارس التاريخ الإسلامي ومدرّسه إلى الاعتماد على دراسات غير المسلمين فيما يتعلق بالتاريخ الإسلامي لما توفر لدى أصحاب تلك الدراسات الأجنبية من مادة مخطوطة أو مقدرة على التحليل والتفسير، أو أسبقية في الدراسة والتقرير، ومع ذلك نرى أنّ من أولويات تدريس التاريخ الإسلامي تعزير الانتماء الإسلامي في نفوس الناشئة فلا بد إذاً من استبعاد تلك الدراسات الأجنبية فيما يتعلق بجوانب حساسة في التاريخ الإسلامي كسيرة النبي صلى الله عليه وسلم وإطلاق الأحكام على الشخصيات الإسلامية والنظم الربانية، فإن هذا يتحفظ منه في الأخذ به من المؤرخ المسلم ضعيف الضبط فكيف بغير المسلم. أما في عير ذلك فإنه يؤخذ عنهم ويخضع لموازين النقد العلمي وما ثبت فيؤخذ به[6].

تحرّي استخدام المصطلحات المرتبطة بالتاريخ الإسلامي واستبعاد المصطلحات الدخيلة بفعل الإسقاط غير السليم، أو الترجمة الخاطئة، أو استعارة ألفاظ تصرف المعنى عن غيره سياقه الصحيح، فمثلا كلمة "الديمقراطية" لا يمكن أن تكون بديلا عن كلمة "الشورى"، لأن نظام الشورى مستقل في معناه ومغاير في شكله ومحتواه عن النظام الديمقراطي الذي يعني في أبسط معانيه أن الشعب هو مصدر التشريع، بينما الشورى نظمتها نصوص شرعية ربانية قطعية ثابتة لا تتغيّر ولا تتبدّل، ومصطلح "الاشتراكية" لا يمكن أن يكون بديلا لمعنى التكافل الإسلامي لأن هذا التكافل يرتبط بدوافع وأهداف إيمانية لا تلتقي مع أهداف المذهب الاقتصادي الاشتراكي في طريق ولا منهج، وقس على ذلك[7].

ومما نقترحه أيضا ضمن المنهج الموصى به في تدريس التاريخ الإسلامي في الجامعات الجزائرية عدم التعميم قبل حصول الاستقراء، والالتزام بمنهج تكون عباراته ومصطلحاته محدودة الدلالة واضحة المعنى، فلا يطلق حكم عام على أهل بلد ما، أو على أهل زمن ما، أو طائفة ما، أو على جنس من الأجناس، ومثل ذلك أن نأتي إلى دراسة تاريخ مجتمع من المجتمعات أو عصر من العصور فنحكم على أخلاق أهله من خلال شعر اثنين أو ثلاثة أو حتى أكثر من الشعراء المجانين، فنقول إن ذلك المجتمع أو العصر عصر مجون وفتك وخلاعة.

وفي الأخير خير ما نتواصى به بعد اقتراح هذا المنهج العلميّ العمليّ في تدريس التاريخ الإسلامي في جامعاتنا أن نعمل فيما اتفقنا حوله من ضرورة الإلمام بالأهداف العلميّة والتربويّة والحضارية لتدريس التاريخ الإسلامي وإعادة تسطيرها بما يخدم قيمنا الدينية والاجتماعية والحضارية، والاعتماد على مادة مصدريّة تاريخيّة موثوقة سندا ومتنا وفق التوصيات التي تضمّنتها المداخلة، ثمّ عرض تاريخ الفترة الوسيطة الإسلاميّة وفق أسلوب نقدي يتجاوز أسلوب الإلقاء والتلقي لنفسح التجربة لأسلوب النقد والتحري، حتى يتذوّق الدارس والمُدرس لتاريخ الفترة الوسيطة الإسلاميّة هذه المادة العلميّة ويحولها إلى تصورات وسلوكيّات تكوّن لنا الشخصية العلمية الجزائرية المتميّزة بأبعادها الإسلامية والحضارية.

الهوامش:

1- جمال عبد الهادي وفاء محمد رفعت، أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ، منهج كتابة التاريخ الإسلامي، دار الوفاء للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 1414هـ / 1994م، ص15.

2- أنور الجندي، تاريخ الإسلام في مواجهة التحديات، دار الاعتصام، القاهرة، ص53.

3- عماد الدين خليل، تفسير التاريخ الإسلامي، دار العلم للملايين، بيروت، ص: 37. وأحمد شلبي، التاريخ والحضارة الإسلامية، مكتبة وهبة، القاهرة، ص81.

4- سيد قطب، ظلال القرآن، ج01، ص533.

5- خالد كبير علال، مدرسة الكذابين في رواية التاريخ الإسلامي وتدوينه، دار البلاغ، الجزائر، 1424هـ/2003م، ص: 26.

6- أُنظر: محمد بن صالح السلمي، منهج كتابة التاريخ الإسلامي وتدريسه، دار الوفاء، المنصورة، مصر، 1408هـ/1988م، ص: 176-178.

7- للمزيد يُـنظر: محمود شاكر، مفاهيم حول الحكم الإسلامي، (ضمن سلسلة التاريخ الإسلامي ج: 09)، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1411هـ/1991م، ج:09، ص218.